مواقف فكرية تجاه الفن والعلم في الغرب والشرق

د. عبد الكريم اليافي

جميع الحقوق محفوظة

اســـــم الكتـــــاب: مواقف فكرية تجاه الفن والعلم في الغرب والشرق

اســـم المـــؤلـــــف: د. عبد الكريم اليافي

الترقيم الـــــدولي:ISBN:9789776689558

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: جمهورية مصر العربية/ محافظة الجيزة/ مدينة السادس من أكتوبر/ ٣٣ التمويل العقاري.

هاتف: ٠٠٢٠٢٣٨٨٥٠٦٤٩/ موبايل ٠٠٢٠١٥٥٣٢٤٧٤٨٦

البريد الإلكتروني: tahreradbe@gmail.com

مواقف فكرية تجاه الفن والعلم
في الغرب والشرق

د. عبد الكريم اليافي

يقول الشيخ سعدي الشيرازي: "أبناء آدم أسرة واحدة". وربما عنى بذلك أن الفكر موجود لدى جميع الناس ولذا كانت الإنسانية واحدة.

ولم تبرز وحدة الإنسانية يوماً من الأيام بروزها في العصر الحديث. لقد محا العلم المسافات، وأطلعت مكاسبه التطبيقية الناس بعضهم على أحوال بعض في مختلف الشؤون معيشة وعلماً وفناً وسياسة وتقدماً وتخلفاً. كذلك نجد كل نزاع عالمي يهدد الإنسانية في كيانها العميق.

إن الإنسانية إذا كانت تؤلف كياناً واحداً فإن مجتمعاتها تتفاوت.. ولا بد لهذا التفاوت من أن يطبع بآثاره سلوك الناس وآراءهم ومشاعرهم كما يذهب علم اجتماع المعرفة، وكما تذهب الماركسية، وكما ذهب قبلهما علم الاجتماع الخلدوني.

ونحن هنا نريد أن نبين بعض المواقف الفكرية تجاه الفن والعلم. وهما ركنان حصينان لكل مجتمع، وذلك كما تبدو في مطالعة ما يجدّ في أفكار الغرب، وما قد تأثل تليداً وتواصل مستمراً في الفكر العربي الإسلامي. وقد تفيد كل مطارحه أو حوار إذا استطاعا أن يجلوا ملامح من تلك المواقف.

نتناول مثلا كتاباً ذا عنوان جذاب وهو الطب النفسي في مظاهر الفن من خلال شتى الحضارات. وهو من أعمال المؤتمر السابع لعلم النفس المرضي في مجال التعبير وقد عقد سنة ١٩٧٣. ونقابل بين ما جاء في هذه الأعمال واتجاه الفكر في جانب من جوانب الحضارة العربية الإسلامية.

ولا حاجة لمطالعة أعمال المؤتمر كلها بل نكتفي بمقالة الأستاذ الدكتور رولاند فيشر Roland Fisher من مركز البحوث في الطب النفسي بماريلند في الولايات المتحدة. وقد ذكر في مراجعة تسعة بحوث وكتبٍ أوردها في ذيل مقالته.

عنوان هذه المقالة مستغرب وهو "فن الجنون وجنون الفن".

"The Art of Madness and Madness of Art

وهي تقع في أقل من صفحتين ونصف الصفحة من الكتاب كأنّ المؤلف آثر أن يكثف آراءه الجديدة وأن يخفف عنا عبأها، ولكن عرض صوراً كثيرة تمثل تطور فن الرسم الحديث ليؤيد ما يذهب إليه.

ولكي أكون دقيقاً أوثر ترجمة القسم الأكبر من هذا المقال الصغير. يقول المؤلف:

"إذا لم يكن الجنون إلا شكلاً واحداً من أشكال اللا معقول كما أكد رانك Rank عام ١٩٢٩ وتابعه حديثاً فوكولت Foucault عام ١٩٦١ فإن لمحة عن تطور الفن والعلم – وهما شكلان من اللامعقول – جديرة بالاهتمام، إذ أن كلاً من العلم والفن يمكن أن يكون أوضح تعبير عن جنون هذا العصر.

أشكال اللامعقول المبتكرة في الفن والانحرافات عن المعايير المعهودة تمثلها الوحشية Fauvism (عام ١٩٠٥) والتكعيبية Cubism (عام ١٩١٠) والتجريدية

غير الموضوعية Nom objective abstractionesm (١٩١٠) والدادائية (١٩١٧) وأخيراً السريالية من عام ١٩٢٥ وينضوي تحت لوائها فن الأوب والبوب op and pop art (وهو اتجاه في الرسم ظهر في بريطانية والولايات المتحدة في أواخر الخمسينيات يدل على مجموعة الأشكال التي تظهر فيها الثقافة الشعبية المعاصرة من سينما وتلفزيون وأغانٍ وموسيقى ومنشورات ذات رسوم كما يدل على استيحاء الفنانين موضوعاتهم من هذه الثقافة الشعبية.

ويقابل التطور الفني في الاتجاهات العلمية المبتكرة نظرية الكم أو الكوانتا عند بلنك عام ١٩٠٠، والتحليل الفرويدي عام ١٩٠٠ أيضاً، ونظرية أينشتين في النسبية الخاصة عام ١٩٠٥، وبعد سنوات اشتباك المكان الزماني واحدا ثياته عند منكوفسكي ثم نظرية النسبية المعممة لأينشتين ثم جوهر بور ثم معادلات الموجة عند شرودنغر ومبدأ اللا حتمية عند هيزنبرغ.

وفي حين وجهت السريالية بزعامة بروتون Breton كتاباً مفتوحاً إلى أطباء المشافي العقلية تحثهم فيه على تحرير المرضى لأنهم يعتبرون ضحايا مشاعرهم المفرطة ظهر كتاب برنزهورن prinzhorn "فن الرسم عند مرضى العقول Bildnerei der Geisteskranken (عام ١٩٢٢) وبذلك نوه لأول مرة تشابه الفن الفصامي والبدائي والتجريدي المخالف للطبيعة وفن الأطفال وفن الفنانين السذج. وعلى خلاف ذلك كان كتاب برنزهورن الثاني الذي ظهر عام ١٩٢٦ وعنوانه "فن الرسم عند المساجين Bildnerei der Gefengenen فقد بيّن فيه أن المساجين يرسمون بواقعية لا بأسلوب تجريدي مخالف للطبيعة كما يرسم الأطفال والبدائيون ومرضى الفصام.

وقد تتالت الأحداث. فألقيت القنبلة الذرية الأولى عام ١٩٤٥ وبعد ذلك بقليل وسمت أنماط السلوك المرضية (التي كانت حاكمة) في نورنبرغ بالاجرام وأنزل بها العقاب. كذلك شرع الدين المنظّم يفقد أسسه وأركانه ولا سيما في أمور تبعث على القلق. كما أن الخط الفاصل بين الواقع وما فوق الواقع، بين الصحيح والمعتل، كان من قبل واضحاً فأصبح من الصعب تمييزه بإطراد.

وقد تناوب نهجان من التطور في إدخال "الثورة الثالثة" في الطب النفسي.

١-انتشار المهدئات الواسع لكبح المرضى الجامحين. فالحبوب حمدت ومدحت بنفس الكلمات التي مدح بها وحمد بروم الصوديوم قبل نحو خمس وعشرين سنة.

٢-انتشار LSD وسواه من المخدرات التي تبعث المس والاهتلاس فارتفعت راية الدعوة والتأييد لاعتبار السريالية سمة بارزة للعصر الحاضر.

وهناك مظهر آخر للثورة (الثالثة) وهو إسباغ المعالجة بالطب النفسي على المجتمع وقد بدأه لنغ Ling عام ١٩٥٩ حين اعتبر الطب النفسي فرعاً مستقلاً عن الطب وخلع عليه الصفة الاجتماعية. أكد لنغ أن بعض الظواهر التي يعتبرها الأطباء مرضية ما هي إلا تعبير عن مشكلات الإنسان وضروب صراعه في مجتمعه على الرغم من تعدد الطرق التي تختارها النفس الإنسانية لتؤكد حريتها. وبذلك يغدو المرض العقلي مجرد أسطورة كما نوه بذلك تشاتش Szasz سنة ١٩٧٠.

إن مسوخ هيرونيموس بوش Hieronymus Bosch الرسام الهولندي التي رسمها في فنه كأنما عادت للظهور ولكن على صعيد الواقع. ولم تكن عودتها مفاجئة إذ تنكرت الآن بأقنعة كيماوية سرية لوثت الماء والهواء وسممت الطعام وخلقت الطفرات الوراثية المؤذية وأثارت كوامن السرطان وعاثت في صبغيات الخلايا فساداً وشذوذاً، وربما كانت علة جميع الكوارث البيئية".

بوس الذي ألمح إليه الباحث عاش في القرن الخامس عشر ومات ١٥١٦م. رسم صوراً خيالية بشعة ومسوخاً منفرّة وشياطين مخيفة. يريد في إلماحه أن ينبع إلى ما ينجم عن التلوث الذي تحوم طيوفه من آفات وتشوّه في الخلق والسحنات البشرية.

وقد أشار الباحث في ختام بحثه جزءاً إلى الأطباق الطائرة المهددة للكيان الإنساني كما يشير إلى مظاهر الغرور الزائف في هذا العصر ويعدها ضرباً من جنون العظمة وإلى اضطراب المجتمع الذي يعيش فيه والذي يمور بشتى المشكلات. وهو ينقل في الحاشية أن الأمريكيين استهلكوا في عام ١٩٦٧ ثمانمائة ألف أوقية من مادة البربورات المهدئة وما يقرب من عشرة ملايين حبة من الانفيتامين Amphetamines وأن كل واحد من أربعة أشخاص يستعمل الحبوب المهدئة بانتظام.

يستغرب المرء كيف يعتبر المؤلف العلم شكلاً من أشكال اللامعقول. ولذلك نجده في حاشية بحثه يشرح ذلك وهو أن العلم يعتمد المصادرة التالية وهي أن العلم يرى الطريقة العلمية هي وحدها الطريقة الصحيحة لمعالجة مشكلة مطروحة ولكن العلم لا يستطيع أن يبرهن على صحة تلك المصادرة بطريقة علمية فهو يقع

في دائرة مفرغة حين يقبل المصادرة ويؤمن بها إيماناً.

يبدو من كلام المؤلف اطلاعه الواسع على تطور الفن والعلم. ولكن نلاحظ أن العلم على خلاف ما يزعم إذا كان ذا صفة معقولة فليس لأنه يعتمد على مصادرة يصعب البرهان عليها وإنما يتخذ المصادرة ويبني عليها بناءً منطقياً متسلسلاً فمعقولية العلم جاءت من هذا البناء المنطقي المتسلسل وحُجة العالم استطاعته شرح الظواهر بمبدأ العلة والسببية ونجوع التجارب المستندة إلى هذا الشرح.

ليس لنا أن نتدخل في مشكلات مجتمع إذا كانت له مساوئ يندد بها أبناؤه فإن فيه مزايا كثيرة. ولكنا نريد أن نقابل هذا الموقف السلبي تجاه تطور الفن والعلم بالموقف الإيجابي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وما دمنا قد ذكرنا المصادرة في العلم فإن العلم والفن في الحضارة العربية الإسلامية يقوم كلاهما على المصادرة التالية وهي أن الإنسان آخر الموجودات في سلم التطور تتجلى فيه جملةً جميع الصفات التي توجد في العالم متفرقة وزيادة. فيه الناحية العنصرية وهي الجسم، وفيه الطبيعة الكلية أي طبيعة الحياة أو النفس، وفيه العقل القادر على التحليل والتمييز وتفهم حقائق الأشياء، وفيه الفكر أو الروح التي هي من أمر الله– ونفخنا فيه من روحنا– ولهذا كان أكمل الموجودات وكان بذلك الخليفة على الكون مسؤولاً عن سياسته سياسة حكيمة وموكلاً إليه تدبير أموره. ثمة تضافر وتضامن بين الكون والإنسان من الناحية العلمية والجمالية والعملية. لقد امتلأت الكتب العربية الإسلامية بفضائل العلم، كل علم، والحث عليه واعتباره فريضة وعبادة بل أفضل أنواع العبادات. ولا حاجة للتنويه لذلك.

ولكنا نذكر هذا الحديث الذي أخرجه الترمذي: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. إن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير". قوله أدناكم يريد صحبه. وقد شبهوا بالنجوم في حديث أصحابي كالنجوم. يصلّون أي يستغفرون ويدعون لهم لأن فضل علمهم وعملهم وإرشادهم سبب لانتظام أحوال العالم. وذكر النملة والحوت بعد ذكر الثقلين تتميم لجميع أنواع الحيوان. ثم أن نفع العابد مقصور على نفسه ونفع أن يتم توازن حيوي على الأرض وألا يقع فيها تلوث ولا إجحاف، لأن العلم والعمل مسوسان بالخير العام ومسيّران نحوه.

ولهذا نجد خليفة الرسول أبا بكر يوصي أسامة بن زيد عند بعثه إلى مشارف الشام لتحرير إخوانه العرب: "لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا ١ نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله.

وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.." إلى آخر هذه الوصية الإنسانية، على حين نصادف اليوم تدمير المدن والقرى تدميراً كاملاً وتقتيل الأطفال والحوامل واقتلاع شعب كامل من وطنه هذا مع التفرقة العنصرية والإساءة إلى أماكن العبادة.

نعود إلى حقيقة العلم. كل تجاف عن النظر في الكون والبحث في أسراره تباعد عن السنن الطبيعي وتنكب عن جوهر الإنسان. وربما كان التمثيل يوضح إلى أي مدى يقع اشتباك الفكر الإنساني والكون.

يمثل ابن عربي حواراً جرى له مع روح هارون النبي يقول فيه: "قلت يا هارون أن ناساً من العارفين زعموا أن الوجود ينعدم في حقهم فلا يرون إلا الله ولا يبقى للعالم عندهم ما يلتفتون به إليه في جنب الله. ولا شك أنهم في المرتبة دون أمثالكم. وأخبرنا الحق أنك قلت لأخيك في وقت غضبه: فلا تشمت بي الأعداء. فجعلت لهم قدراً. وهذا حال يخالف حال أولئك العارفين. فقال: صدقوا، فإنهم ما زادوا على أعطاهم ذوقهم. ولكن انظر هل زال من العالم ما زال عندهم؟ قلت: لا. قال: فنقصهم من العلم بما هو الأمر عليه على قدر ما فاتهم. فعندهم عُدِم العالم، فنقصهم من الحق على قدر ما انحجب عنهم من العالم فإن العالم كله هو عين تجلّي الحق لمن عرف الحق".

ولذلك يرى أولئك المفكرون أن إدراك حقائق الأشياء بالعلم ووعيها بالفن إنما هما وعي تلك التجليات وإدراكها. إنهما العبادة الحقيقية والغاية التي خلق لها الإنسان.

تلك تجليات كثيرة ومتنوعة وقد تتناقض. وتناقضها وتنوعها وكثرتها كل ذلك يؤدي إلى الحيرة. وعندهم أن الحيرة نوعان: حيرة جهل، تحيط الحيرة بالجاهل. وحيرة علم، يحيط العالم عندها بالحيرة. ولا نهاية للحيرة في العلم ولا في الفن. وعلى حد تعبير ابن عربي فإنَّ الأمر في نفسه لا غاية له يوقف عندها. فالهدى هو أن يهتدي الإنسان إلى الحيرة فيعلم أن الأمر حيرة. والحيرة قلق وحركة. والحركة حياة. فلا سكون، فلا موت، ووجود فلا عدم".

هذه الحركة العلمية الدائبة عبّر عنها النفري في مواقفه حين قال: "العلم المستقر هو الجهل المستقر".

وكذلك الأمر في الجمال والفن. ثمة جمال يتلمسه الفنان أنّى نظر وأنى تأمل. وهو مسؤول فوق ذلك عن تجميل الكون. الحياة كلها عندهم فن وحب وإقبال. إنها تتسم بالقدسية. هي طريق الخلود. والفن ذو إيقاع يشف عن روحانية سرمدية من خلال التعبير والتغيير وذلك بالتناسب الدقيق والانسجام العميق وبموسيقى الخطوط واعتدال الأشكال سواء أكان ذلك في الرسم الذي يبدو كأنه تضافر أغنيات عيانية في المكان أم في العمارة المتزنة المطمئنة التي يجري فيها الماء جريان الدم في الجسم. الفن عندهم سنىً من نور الجمال المطلق.

وصَرّح بإطلاق الجمال ولا تقل ... بتقييده ميلا لزخرف زينة
فكل مليح حسنة من جمالها ... معار له بل حسن كل مليحة

كما يقول ابن الفارض (توفي سنة ٦٣٢هـ - ١٢٣٥م):

وقل للعيون الرمد للشمس أعين ... سواك تراها في مغيب ومطلع
وسامح نفوسا ما جلتها رياضة ... و لا قوبلت مرآتها بتطلع

كما يقول سليمان بن علي العفيف التلمساني (متوفي ٦٩٠هـ- ١٢٩١م) لا نريد أن نفيض في إيراد نصوص كثيرة تشرح مواقفهم وآراءهم.

ولكن لا بد أن ننوّه بقمة من قمم الفكر الصوفي تعلي شأن العلم والفن والحياة والإنسان لعلّنا نقبل في مستهل القرن الهجري الخامس عشر متفائلين متضامنين مشمرين للجد والعمل في هذه الميادين. إن هذا المؤلف عبد الكريم الجيلي (متوفى سنة ٨٢٦هـ- ١٤٢٣م) يستند في جملة ما يستند إليه في كتابه

"الإنسان الكامل" إلى حديث يعتمده الصوفية لقوة معناه ولا يرضى عنه أهل الحديث لضعف إسناده وهو "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن". فالوسع هنا ثلاثة أنواع: وسع المعرفة بحقائق الأشياء وهو أصل العلم، ووسع المشاهدة وإطلاع القلب على المحاسن والجمال وهو أصل الفن، ووسع الخلافة خلافة الإنسان على الكون وهو أصل الأخلاق الفاضلة والسياسة الحكيمة الخيرة. وهكذا نفهم سر هذه النجوى نجوى التجليات من خلال هذا النص الذي نقدمه وهو من أجمل النصوص التي عرفناها يخلع على الإنسان الذي هو أخو الإنسان أياً كان صفة علوية فائقة في شتى وجوه نشاطه ومختلف جوانب حياته.

جاء في باب تجلّى الصفات: "فمن المكلّمين من تناجيه الحقيقة الذاتية من نفسه فيسمع خطاباً لا من جهة بغير جارحة، وسماعه للخطاب بكليته لا بأذُن فيقال له: أنت حبيبي. أنت محبوبي. أنت المراد. أنت وجهي في العباد. أنت المقصد الأسنى. أنت المطلب الأعلى. أنت سري في الأسرار. أنت نوري في الأنوار. أنت غيبي. أنت زيني. انت جمالي. أنت كمالي. أنت اسمي. أنت ذاتي. أنت غيبي. أنت صفاتي. أنا اسمك. أنا رسمك. أنا علامتك. أنا وسمك. حبيبي! أنت خلاصة الأكوان والمقصود من الوجود والحدثان تقرّب إلي بشهودي فقد تقربت إليك بوجودي. لا تبعد فإني أنا الذي قلت ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. لا تتقيد باسم العبد. فلولا الرب ما كان العبد. أنت أظهرتني كما أنا أظهرتك. فلولا وجودك ما كان وجودي موجودا. حبيبي! الدنوّ الدنوّ. حبيبي! العلوّ العلوّ. حبيبي! أردتك لوصفي واصطنعتك لنفسي. فلا تُرد نفسك لغيرك. ولا تُرِ دغيري لك. حبيبي! شمّني في المشموم. حبيبي!. كلني في المطعوم. حبيبي! تخيّلني في الموهوم. حبيبي تعقّلني في المعلوم. حبيبي! شاهدني في المحسوس. حبيبي! المسني في الملموس. حبيبي! البسني في الملبوس. حبيبي! أنت المراد بي. أنت

المكني بي أنت المكني عنه بي. ما ألذها من معاطفة! ما أحلاها من ملاطفة...

... أنا المراد بك، أنا لك لا لي، أنت المراد بي، أنت لي لا لك. حبيبي! أنت نقطة عليها دائرة الوجود. فكنت أنت العابد فيها والمعبود. أنت النور، أنت الظهور، أنت الحسن والزين كالعين للإنسان والإنسان للعين".